



خطبة صلاة الجمعة 22/3/2013 للشيخ الطبيب محمد خير اسعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

### (فَقَدْ الْعَالَمُ)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتبا، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ \* قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 9-10].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» [رواه البخاري ومسلم].

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (تعلّموا العلم، فإن تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة).

عنوان خطبة اليوم:

### (فَقَدْ الْعَالَمُ)

أيها الإخوة:

أفرزت الأزمة التي نعيش -والتي نسأل الله تعجيل كشفها بلطفه- شِدَّةً والمأ، ولعلَّ أَلَمَ ما فيها وأشدّه قتل الإنسان طفلاً وشاباً وشيخاً، رجلاً وامرأة، وقد حصدت الأزمة عشرات الآلاف من الأرواح، ولا ريب أن مَن ماتَ ماتَ بأجله، ولا ريب أنَّ كلَّ نفسٍ ذائقة الموت، ولا ريب أن الخصوم مجمعة عند باريها.

اللهم احقن الدماء، وارفع البلاء، وعجّل بالفرج...

تعلمون -أيها الإخوة- أن فلسفات الأرض، ذهبت في سبيل تحقيق الرِّفاه لبني الإنسان مذاهب شتى، كان من آخرها المادية الماركسية، التي عدّت أدوات الإنتاج محور العالم، وتملّكها سبيل رفاهه، وحَوَّلَهَا الناس يجتمعون، ولكسبها يتقاتلون ويتناحرون، وما حركة التاريخ عندهم إلا حركةٌ نحو هذه الأدوات وحولها، ومَرَّت الأيام وتداغت هذه الفلسفة ثمَّ انهارت، وأثبتت عجزها من ذاتها، وأخفقت في تحقيق الرِّفاه الموعود.

وجاءت الفلسفة الرأسمالية، التي تَعْتَبِر رأس المال هو المحرِّك والمسير لكلِّ حركات البشر والتاريخ، ومَن مَلَكَ رأس المال مَلَكَ الْعَالَمَ، ماضيه وحاضره ومستقبله، وتمرُّ الأيام لتكشف أن رأس المال سلاحٌ ذو حدين، بإمكان حامله أن يُقدِّم الرفاه لنفسه ولمن حوله، وبإمكانه أن يُحرِّق برأسماله الأرض ومَن عليها، وتتداعى هذه الفلسفة للسقوط.

وبحث المفكرون والعلماء والمؤرخون والسياسيون عن طريق تحقيق الرفاه للأرض، فوصلوا إلى أن الثروة الحقيقية، وأن رأس المال الأقوى، وأن الاستثمار الأنجع هو في الإنسان. الإنسان هو الذي يستخدم أدوات الإنتاج، بالشكل الأمثل وهو الذي يطوِّرها. الإنسان هو الذي يُنَمِّرُ رأس المال، وهو الذي ينميه.

الإنسان هو الذي يَرْقَى بالأرض، أو يهوي بها.

فبدأت الدراسات والاستثمارات الحديثة تتجه نحو هذا الإنسان، تنميةً وتزكيةً وتجويداً وترقيةً، لِيُحَقِّقَ الإنسان رَفاه الأرض وسعادتها، ولتغدو الموارد البشرية أنفس الموارد وأزكاها.

هذا الذي وصلت له الدراسات الحديثة وحركات المجتمعات، هو الذي جاء به الإسلام، ودعا له سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.

أليس الإنسان الخليفة في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30].

أليس التكريم من الله تعالى لبني آدم على سواهم من الخلق: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:70].

أليس أفضل خلق الله تعالى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من البشر، لا من الجن ولا من الملائكة.

من أجل هذا كَرَّمَ الله الإنسان، وحبَّاه واصطفاه وكَلَّمه وناجاه، ومن مظاهر تكريمه: أن حَفِظَ عليه نفسه، ودينه، وعرضه، وعقله، وماله، وما هذه الخمسة، أعني: (حفظ الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال) إلا مقاصد الإسلام على ما يسميها علماء التشريع. وعَلِمَ أهل الشرِّ في الأرض أنَّ الثروة الحقيقية للبلاد إنما هي عاملها البشري، فأشاعوا القتل في كلِّ بلدٍ أرادوا تخريبه، مباشرةً حيناً وبطرقٍ غير مباشرةٍ أحياناً، يعينهم في ذلك شهواتُ النفوس الحريصة على التسلط والتملك من جهةٍ، وجهلُ البسطاء من جهةٍ أخرى . ولئن كان الإنسان ثروةً فإن العلماء والمبدعين والعباقرة المنضبطين بشرع الله هم أغلى من في هذه الثروة.

وهل البلاد إلا بعلمائها وفقهائها، ولئن أراد الأشرار إشاعة القتل في البلاد لتخريبها فإنهم باقتناص العلماء يطعنون القلب منها.

إن هجرة الأدمغة وقتل العلماء وخطف النوابغ واعتقال أو اختفاء المفكرين، وسائلٌ تدمير للبلاد وتشيت للعباد.

قيل لسعيد بن جبير رحمه الله: ما علامة هلاك الناس؟ قال: (هلاك علمائهم).

وعن الحسن رحمه الله قال: (كانوا يقولون: مَوْتُ الْعَالِمِ ثَلَمَةٌ فِي الْإِسْلَامِ، لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ).

وقال علي رضي الله عنه: (إنما مثلُ الفقهاء كمثلُ الأكفِّ، إذا قطعت كفُّ لم تُعَدَّ).

أيها الإخوة:

يحترم الإسلام العلم، ويُجِلُّ أهله، ويعطيهم منزلة لا يعطيها من سواهم، فالإسلام دين ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق:1]، والإسلام دينُ العلم، «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» [رواه مسلم وأبو داود والترمذي]، وفي الحديث أيضاً: «وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَضَعُ أجنحتَها رِضا لِطالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العالَمِ عَلَى العابدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وَإِنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ» [رواه أبو داود].

ذُكِرَ أحد العلماء عند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وكان متكئاً من عِلَّةٍ -أي مريض- فاستوى جالساً، وقال: (لا ينبغي أن يُذكَرَ الصالحون فنتكئ).

وكان الإمام أحمد رحمه الله يدعو للشافعي في صلاته ويقول: (ما صليت صلاةً منذ أربعين سنةٍ إلَّا وأنا أدعو للشافعي)، فقال له ابنه: يا أبتى، أي رجلٍ كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟

فقال الإمام أحمد: (يا بُنَيَّ كان الشافعي رحمه الله كالشمس للدنيا وكالعافية للناس). وكان الشافعي رحمه الله يقول في حق الإمام مالك: (إذا ذُكِرَ العلماء فمالكُ النجم الثاقب، وما أحدٌ أَمَنُ عَلَيَّ مِنْ مالِك).

هذه المنزلة التي يعطيها الإسلام للعالم لا تعني أن العالمَ معصومٌ فلا يُخطئ، أو أنه موحى إليه فلا يَزلُّ. بل هذه المنزلة إكرامٌ للعالم، وحثٌّ للناس على التوجه إليه، والإقبال عليه. ورد في الأثر: احذروا زَلَّةَ العالمِ، وانتظروا فيئانَهُ.

قال الإمام سفيان الثوري رحمه الله: (ليس يكاد يَفْلِتُ من الغلط أحدٌ).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: (وَمَنْ يَعْرِى مِنَ الخِطَا والتصحيف).

وقال الترمذي رحمه الله: (لَمْ يَسْلَمْ من الخِطَا والغلط كبير أحدٍ من الأئمة مع حفظهم).

وكلُّ إنسانٍ يؤخذ منه ويُرَدُّ عليه إلَّا صاحب الروضة الفيحاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وليس المسلم ملزماً بأخذ قول العالم إذا كان هناك دليل يخالفه، ولكن فرق كبير بين رد القول وبين الطعن في العالم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ۤأَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:8].

وقال ربنا سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ \* وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:41-42].

قال مجاهد رحمه الله في معنى ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: هو خراب الأرض وقبض أهلها. وقال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء، وذهاب الفقهاء. رحم الله الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي وسائر من فقدنا من علماء هذه البلدة والأمة، ورحم الله سائر شهدائنا وغفر لهم. وحفظ الله علينا من بقي من علمائنا ومتعنا الله بهم حياتنا، اللهم آجرنا في مصيبتنا وأخلف لنا خيراً منها.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهلها).

والحمد لله رب العالمين